



صخرة الروشة، الاستعارة والرمز في الفيلم.



ربيع مروة في "رماد".

"رماد" فيلم روائي قصير لجوانا حاجي توما و خليل جريج

طقوس العزاء استعارة لحيرة وطن وضياع أفراد

الدينية، كسائر الطوائف، لذا يضحى نبيل وعائلته امام مأزق اعلان الحقيقة على الانسباء والمجتمع في ظل التقاليد البالية والراسخة. وكان لا بد من اللجوء الى "التمثيل" لانقاذ المظاهر واستقدام رجل حي لـ "يسجى" في النعش مكان الميت الحقيقي، فيغدو ممكناً لإحدى عمّتي نبيل التحدث اليه للمرة الأخيرة وإلقاء تحية الوداع، فيما تصر عمته الثانية على رؤية الرماد. وها نبيل في وضع الحيرة والضياع بين طقوس عزاء رتيبة في الصالون الفسيح وغرفة يسجى فيها الميت "الافتراضي"، غير عائر على نفسه في أي من المكانين. عالماً في الرواق الذي يفصل بينهما في حال من التيه والانقباض النفسي، تلاحقه الكاميرا في ضياعه عبر لقطات قريبة ترصد حالاته النفسية المأزومة.

على حافتي الدراما والنقد اللاذع تدور مشاهد "رماد"، وإن ظل في النهاية فيلماً ذاتياً ينشد إمرار النظرة عبر الميتافور والاستعارة، قبل ان يقرن ختاماً الموت بالحسبة الرهيفة استناداً الى جدلية الموت والجنس إذ تطل نظرة نبيل الذاتية [ربيع مروة في أفضل حضور سينمائي له] على تفاصيل من أجساد نساء متشحات بالسواد فيضاعف حضورهن المتحفّظ والرزين من إنارتهم. الحسبة المنقولة بلقطات قريبة لتفاصيل الأجساد نافذة أمل ورغبة عيش على المشهد الحزين، أمر مسعف في نزاع البشر للبقاء. التوليف هنا لغة فذة، معبرة، تريح الشريط من قناتمه الطاغية على معظم دقائقه التي تداني الثلاثين، والتي ساهمت فيها مهارة مديرة التصوير الفرنسية جان لاپواري الوافدة من عوالم سينمائية قاتمة لدى أمثال فرنسوا أوزون الذي انجزت له صورة "ثمانى نساء".

سينما قوية، معبرة، رهيفة وآسرة المناخات، صنعها الثنائي خليل جريج وجوانا حاجي توما، وبدت لي تحولاً نوعياً مثيراً في فيلموغرافيتهما المنبئة بمزيد من المدهش والمفاجئ.

جورج كعدي

لم يكن الثنائي السينمائي خليل جريج وجوانا حاجي توما في حاجة الى أكثر من ست وعشرين دقيقة لإتمام هذه اللوحة المشهدية الأسرة، حول مجتمع راسخ التقاليد، خبيث الطقوس والمظاهر. شريطهما الروائي القصير "رماد" (*) أليغورية بليغة لوطن لم يتم الى اليوم دفن ماضيه وذاكرة الحرب، فظلّ معلقاً، عالماً في الفسحة الضائعة بين قديم باند وراهن غير متبلر الملامح، كأنه المطهر الأبدي الذي لا يفضي الى جنة او جحيم، نقطة وسطى معلقة لعيش معلق.

صمت، رهافة، فقد، ضياع، قسوة مكبوتة، هزء مبطن... بعض سمات "رماد" الفيلم النقلة والتحول للسينمائيين الشريكين في النظرة والحياة، ولهما "البيت الزهر" [1999] أول روائي طويل لهما، تلاه الوثائقيان "خيام" [2000] و"الفيلم المفقود" [2003]، الى العديد من معارض التجهيز الفوتوغرافي التي تؤكد انتماءهما الى مفردات الحدائث خياراً تعبيرياً يسم فنون العصر، مع العودة المستمرة الى السينما شفغهما الثابت غير المتحول.

الاستعارة في "رماد" تتوسل عنصري الحكائية والواقعية، لا في معناهما التقليدي بل في المعنى الواسع والمتحرك، فلا الحكائية كلاسيكية ولا الواقعية محدودة وملتزمة، إنما مجرد ملامح من هذه وتلك بغية نسج "الحبكة" وإبلاغ الميتافورية الذكية لوطن ومجتمع وأفراد. والمنطلق واقعي: مجلس عزاء إثر وفاة جدة المخرج ألهمه الموضوع والشخصيات. رأى "كوريغرافية" أجساد الأهل والمعزين، على ما يقول، في نهوضها وجلوسها، ضمن فسحة مكانية محدّدة ألفاها صالحة لاختبار سينمائي واشتغال على المساحة المشهدية، فكان نسج هذه "القصة" مع ربيع مروة شريكاً في الكتابة وممثلاً رئيسياً في "رماد"، مؤدياً شخصية نبيل العائد من غربته مع الوعاء الذي يحوي رماد والده المتوفى في الغربة إثر مرض، موصياً بحرق جنته ونثر رمادها في البحر من على صخرة الروشة التي كان يقفز عنها ماضياً. بيد ان حرق الجثة تحرمه طائفته

• جورج كعدي: ما سر هذا التبدل في نظرتكما وأسلوبكما ومناخاتكما بين "البيت الزهر" شريطكما الروائي الأول الطويل و"رماد" الروائي القصير الأحدث لكما؟ بدت لي هذه النظرة الجديدة على قدر من الكآبة مثلاً.

- خليل جريج: ثمة هنا شيء شخصي أكثر مما في "البيت الزهر"، حتى لو كتبنا "رماد" مع ربيع مروة.

• ما هو هذا الشيء الشخصي؟

- خليل جريج: عشت أيام العزاء بوفاة جدتي...

• ومنها نقطة الانطلاق.

- جوانا حاجي توما: كنا نتقبل التسامح في وشاهدنا تلك "الكوريفرافيا" إن جاز القول. الأجساد في نهوضها وجلوسها طوال أربعة أيام.

• هل يسعنا القول انه مجلس عزاء في مجتمع بورجوازي؟

- خليل جريج: اذا شئت. في تلك "الكوريفرافيا" ناحية جميلة...

- جوانا حاجي توما: الوشوشات. وفجأة يضحك أحدهم...

• أصف هذا المجتمع في فيلمكما بالبورجوازي لا من باب الوصف الانتقادي، بل انطلاقاً من واقع ان مجالس العزاء في بيئات لبنانية محددة، أي البيئة المتوسطة وما دونها، تتسم بالمزيد من الصخب والضجيج ولا صمت بهذا القدر الذي يظهر في "رماد". هناك يمكن ان نسمع مناقشات سياسية حادة واصواتاً مرتفعة، الخ. في حين أن مجالس العزاء البورجوازية تعرف مثل هذين الصمت والتأنق الاجتماعيين. لكن يسعنا تجاوز كل ذلك الى ملاحظة انجذابكما الى "طقوس" العزاء تلك. ما كان هدفكما أبعد من الجانب الواقعي و"التسجيلي" لمناسبات كهذه؟

- خليل جريج: فيلمنا ليس وثائقياً أو تسجيلياً، ولم نختبره على هذا النحو. لكن قد يكون ثمة جانب توثيقي في تصرفات الاشخاص الذين اختبروا ظروفاً مماثلة. كنا نسرق بالكاميرا لحظات معبرة لهم...

واقع وممثلون

• هل صورتم مجلس عزاء واقعياً؟

- جوانا حاجي توما: كلا، لكننا أجلسنا الأشخاص كما في مجلس عزاء واقعي، وادرنهم كممثلين، لكن بين مشهد وآخر كانوا ينتظرون

دوران الكاميرا مع بقائهم في أماكنهم. وكنا نرى في بعض الأحيان تصرفات تلائم نظرتنا فنشغل الكاميرا من دون علمهم، كتلك اللقطة لإحدى النساء المسترخيات على كرسيها في انتظار بدء التصوير، أو لرجل يغفو على كرسيه أيضاً.

- خليل جريج: الذين يظهرون في الفيلم ناثنين كانوا فعلاً كذلك. هذا ليس وثائقياً بل "وثيقة"، أي شيء حقيقي وليس واقعياً، لم نسع الى الواقعية بل عملنا أكثر على "الكوريفرافيا"، وخاصة أهل الميت الذين أجلسناهم في أماكن متفرقة لتكون الكوريفرافيا أكثر إثارة للاهتمام. اشتغلنا على المكان، على المساحة. في أي حال، المنطلق واقعي.

- جوانا حاجي توما: ثلاثة أمور واقعية انطلقنا منها، أولها اننا اخترنا مجلس عزاء حقيقياً، ثانيها ان خيال خليل

اختطف في الحرب بلاتو "رماد". ولم يعد فأقيم له مأتم من دون جثة، وثالثها هو تعاوننا في كتابة السيناريو مع شخص ثالث هو ربيع مروة. بحثنا نحن الثلاثة عن كيفية سرد هذه القصة في أسلوب مختلف يشعر المشاهد بهذا الاختلاف. تحدثنا كثيراً في الموضوع، وهذا الجانب من التبادل الشفهي كان مثيراً للاهتمام إذ عبر كل منا عن أفكاره ورؤيته، وفكرنا في قصة هذه الجثة غير الموجودة والتي يحل أحدهم مكانها في النعش، لنقول انه لا يسع المرء في هذا البلد ان يموت بحسب رغبته ولا أن يتزوج وفق مشيئته. كل ذلك خلق الأجواء لولادة هذه القصة.

• تطرقتما الى قضية الذين يرغبون في ان تحرق جثثهم بعد وفاتهم فيما تحرم القوانين والأعراف الدينية كلهما ذلك.

- جوانا حاجي توما: بلى، إنه أمر ممنوع.

- خليل جريج: عرفنا أناساً كثيراً من محيطنا يرغبون في ألا يدفنوا بعد وفاتهم.

• بدا لي أنكما عجلتما قليلاً في كشف مسألة الجثة المحروقة والمحفوظ رمادها في وعاء خاص. ألم يكن ممكناً تبعاً لبنية الفيلم تأجيل هذه الإشارة الواضحة، أي ان نفقه السر في وقت لاحق؟ أما كان ليعزز ذلك ناحية الغموض في الفيلم؟

- خليل جريج: كان لدينا مثل هذا الاحتمال في مرحلة المونتاج. بيد أن الأمر الأساسي لدينا كيف تعود الشخصية الأساسية فتبني واقعاً خاصاً بها. لا تعثر على مكان خاص بها في الصالون أو في الغرفة فتظل عالقة في الرواق بينهما. الموضوع الأساسي كيف يستطيع هذا الشاب الذي فقد أباه ان يعيد بناء العلاقة مع عائلته والجماعة التي ينتمي إليها.

- جوانا حاجي توما: كنا راغبين جداً في العمل على شخصية نبيل [ربيع مروة]. أفهم ما تقوله بالنسبة الى القصة. لكن بالنسبة اليها كان الأهم إظهار ضياعه في المكان بين صالون العزاء والغرفة الخاصة. أردنا ملازمته ورصد محاولته العودة الى

عائلته.

• هو النقطة المركزية إذن؟

- جوانا حاجي توما: هو المركز، كل شيء يدور من خلال نظرتي. يرى الى العزاء في الصالون الفسيح عبر لقطة واسعة ثم تدنو اللقطات شيئاً فشيئاً منه، الى حد انها تغدو لقطات قريبة جداً لما يراه. التفاصيل هي التي ستعيد ربطه بعائلته او يفرق في المظاهر. لعل التمسك بالعناصر الجسدية يعيده الى من يحب.

اللعبة والقرار

• ألا إطالة هنا في تصوير الحال النفسية التي يعيشها في الرواق؟ نوع من التكرار؟

- خليل جريج: لا أشعر بذلك. ربما، بيد انه جزء من تلك الكوريفرافيا. وهذا الوقت الطويل كان ضرورياً له ليستوعب الوضع الجديد ويدخل اللعبة ويستمر في قراره.

- جوانا حاجي توما: ثمة نوع من التبطيء اذا شئت لإظهار فعل الصدمة. هنا تعيش

الشخصية صدمتين وحالاً من الخدر وتحتاج الى الوقت للخروج منها. يسألونه طيلة الوقت: أين أنت؟ كنا في حاجة الى هذا الوقت.

- خليل جريج: كنا نخشي ان يرى الناس في الفيلم ما هو ضد-درامي، إذ لا حدث يجذب او يشد الاهتمام.

• لكن جمهوراً مهيناً يسعه التقاط المعاني.

- خليل جريج: بلى، ولكن...

- جوانا حاجي توما: أردنا إمرار القصة عند المستوى الثاني ونحن نشاهد شيئاً آخر. انه ما أردناه، أن يتبع المشاهد قصة يتضاءل حضورها وينسحب الى المستوى الثاني.

- خليل جريج: مما يتيح لك العمل على نحو سينمائي فعلي. لديك خط درامي، إنما يسعك خلفه العمل على عدة طبقات تنتمي الى اللغة السينمائية.

• نتحدث عن الكآبة التي ترشح من صورة "رماد" ومناخاته. فوجئت بهذه الصورة المعتمة والمنقبضة، وخاصة ان المناخ العام مناقض لـ "البيت الزهر" الذي ينطوي على بعض أجواء الخفة والدعابة والألوان المشعة!

- خليل جريج: حتى في "البيت الزهر" - الذي كنت تقول انه فيلم "مهذب" - كانت هناك كآبة مخفية، انما لم يكشف عنها سينمائياً. كانت مغلفة بالسخرية والألوان. عدا عن وفرة الشخصيات. في أي حال، العجز وانعدام الحلول لدى أبطال "البيت الزهر" كانا يشيان بمثل تلك الكآبة...

• لا أتحدث عن كآبة الشخصيات بل عن كآبة الصورة ومناخاتها.

- جوانا حاجي توما: أود إضافة أننا عالجتنا في "البيت الزهر" موضوعاً اجتماعياً وسياسياً. اليوم تغير واقعا. بتنا نبحث عما يساعدنا كأفراد على العيش في هذا البلد، في هذا المجتمع. أضحت المشكلة على أرضية الذات أكثر. كيف تبحث عن نفسك فيما تتواصل مع الآخرين؟ وما دورك؟ كل ذلك يولد لديك كآبة مختلفة. أما لناحية الصورة فإننا فكرنا كثيراً أي نوع سينمائي نريد وأي صورة وأي موضوع؟

- خليل جريج: نحن نتغير مع



جوانا حاجي توما و خليل جريج على بياتو "رماد".

السنين أيضاً. "البيت الزهر" كان أول أفلامنا ولم نكن صنعنا سينما قط.

• لن "نبيل" يدنا بـ "البيت الزهر" فهو فيلم جيد ولا نقارن.

- خليل جريج: سيخرج في نسخة "دي في دي" قريباً جداً.

- جوانا حاجي توما: اننا فخوران جداً بالفيلم...

• أقول ان ثمة تحولاً جذرياً في الأسلوب وفي المزاج النفسي لديكما. كأنه ليس فيلماً من عالمكما.

- خليل جريج: الذين شاهدوا أفلامنا الفيديو الوثائقية يدركون انه فيلم ينتمي الى عالمنا.

اختلاف النظرة

• أقول إنني فوجئت بهذا الشريط تحديداً.

- جوانا حاجي توما: صحيح، لأنك لم تر أفلامنا الوسطى بين "البيت الزهر" و "رماد".

• أنتما تغيرتما أيضاً كما تقولان.

- خليل وجوانا [تباعاً]: بلى، نحن أيضاً تغيرنا. نظرنا الى الحياة اختلفت. زمن تصويرنا "البيت الزهر" كان ثمة في البلد جو من التفاؤل. الوضع كان مختلفاً جداً اقتصادياً. كانت مرحلة اعمار. اليوم ثمة حال

من النوم، وهذا ما وضعناه في "رماد". يهمننا موضع الكمون، أي ما لا يزال موجوداً وكامناً ولم يتح له وقت الظهور الى العلن. هذا الكمون يحتاج الى نوع من العتمة في الصورة. ثمة كآبة في الشريط حقاً. هناك أمل مصدره الجسد والاتصال الجسدي بالآخر.

• تماماً، إنها الحسية الجسدية التي تسير في موازاة الموت في فيلمكما. انها جدلية الموت - الجنس.

- جوانا حاجي توما: هذا موجود في الفيلم. هناك الموت والحسية. في العزاء تلمس دوماً جسداً آخر. تقبله...

• النساء يظهرن عادة مثيرات في العزاء.

- جوانا حاجي توما: بلى. إذ يكن متحفظات. بدا لنا أن العلاقات الحسية تظهر أكثر في العزاء.

- خليل جريج: هناك العلاقة مع الجسد وهناك النظرات أيضاً في مجالس العزاء. نظرات الى التفاصيل. الى الأرجل والأيدي.

• الإنسان حيوان جنسي حتى في العزاء. (ضحك).

- جوانا حاجي توما: ربما لأننا نكون على مقربة من الموت أيضاً. تشتد غزيرة الجنس والحياة. عبرنا باللقطات القريبة عن الحسية في تفاصيل الأجساد. لا تبقى النظرة شاملة ومرهقة. تغدو النظرة شخصية الى تفاصيل الأشياء.

(*) "رماد" [2003] إخراج جوانا حاجي توما و خليل جريج عن سيناريو لهما بالاشتراك مع ربيع مروة، تمثيل: ربيع مروة، ندى حداد، نعمت سلامة، جورج حايب، علي شري، نادين لبكي، كارولين لبكي، طانيوس سيف، مارك ماروني، هدى قصار ومروى خليل. تصوير: جان لابوار، مونتاج تينا باز لوغال، ديكور وملابس: زينة صعب دوميليرو، صوت: شادي روكز، موسيقى أصلية: ياسمين وزيد حمدان...

"رماد" في 26 دقيقة، مصوّر بنسخة 35 ملم، عرض في مهرجانات لوكارنو ومراكش ومونبوليه وأميان، كما سيعرض في مهرجانات روتردام وتريسته وروان. وكان له عرض أول في بيروت قبل اسبوعين في المركز الثقافي الفرنسي. وتجدر الإشارة الى أنه حظي بنقد ايجابي لافت في العديد من الصحف الفرنسية والاوربية والمجلات السينمائية المتخصصة.

المدرسة اللبنانية
الكفاءات
سهرة رأس السنة

➤ Le Banquet
مأزة لبنانية فاخرة
مع ليلو العبد للبيروتسي

➤ Le Cénacle
مأزة لبنانية فاخرة

➤ Le Restaurant
بوفيه مفتوح

➤ Le Lyonnais
سهرة فنية مع
Jaipur Band
للاستعلامات والحجز
مط: (٠١) ٩١٧٠٠١٠٠
٠٣٠٠٢٠٠١٠١٠١